نظرية العلم والمعرفة عند ابن برجان

الطالب الباحث في سلك الدكتوراه: رشيد لبريجة.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر الإمام العارف بالله ابن برجان الأندلسي من أهم الشخصيات العلمية بالغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري(ت536ه) حيث "عرف بالمشاركة والتميز في مختلف العلوم والمعارف والأخذ من كل علم بأوفر حظ"[1] "مع المعرفة بالقراءات والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة"[2].

ورغم هذه المكانة العظيمة التي بلغها رحمه الله والاحتفاء الذي حظي به في كتب التراجم، إلا ان شخصيته العلمية لم تأخذ المكانة اللائقة بها في مجال الدراسات والأبحاث الأكاديمية، وما هذه البحث إلا محاولة للفت أنظار الباحثين إلى تراث هذه الشخصية الفذة في تاريخ الغرب الإسلامي.
وحيث إن ابن برجان(رحمه الله) من الشخصيات العلمية التي أثارت مجموعة من التساؤلات في زمانها، حتى أنه تعرض لمحاكمة على عقيدته وأقواله، التي صنفها خصومه بأنها مخالفة للشريعة الإسلامية، واستقدموه بسبب ذلك من إشبيلية إلى مراكش من أجل محاكمته، بل و وصل غضب السلطان منه إلى الأمر برمي جثته بعد وفاته في المزبلة، لولا لطف الله به وتحول جنازته إلى جنازة مشهودة بعد تدخل بعض أهل العلم والفضل[3]...

هذا التشكيك في عقيدة الرجل وسلامة منهجه والطعن في علومه ومعارفه و رميه بالقول بالوحدة والحلول!! تجعل من أولويات البحث في تراث شخصية ابن برجان رحمه الله. استقراء منهجه المعرفي لتحديد النظرية المعرفية التي صدرت عنها أقواله وعقيدته التي صرح بها في كتبه. والبحث في المحددات المعرفية والمنهجية التي انطلق منها ابن برجان في بناء نسقه العلمي والمعرفي، ثم مقارنة كل ذلك بالمنطلقات المعرفية المتعارف عليها في النظرية المعرفية الإسلامية، ومن هنا تتحدد أهمية البحث وقيمته.

---

[1] ابن الزبير الغرناطي، صلة الصلة، الطبعة الأولى، تحقيق شريف أبو العلي العدوي، (مصر: مكتبة الثقافة الدينية، 1429ه) ص 32
[2] نفس المرجع، ص 32
[3] ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، الطبعة الثانية، تحقيق أحمد توفيق، (المغرب: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1984م) ص 169

وللوصول الى هذه النتيجة فإننا سننطلق من الأسئلة التالية:

- ما هي طبيعة العلم والمعرفة عند ابن برجان؟ وما هي مراتبها ومصادرها؟ وما مدى ارتباطها بالنظرية الإسلامية في مجال العلم والمعرفة؟

وبالتالي فإن البحث سيتناول ما يلي :

- المبحث الأول: طبيعة العلم والمعرفة عند ابن برجان

1) مفهوم العلم والمعرفة
2) حقيقة العلم والمعرفة

المبحث الثاني: مصادر العلم والمعرفة عند ابن برجان

ثم خاتمة

المبحث الأول: طبيعة العلم والمعرفة عند ابن برجان رحمه الله:

1) مفهوم العلم والمعرفة:

حرص ابن برجان رحمه الله قبل كل شيء على تقسيم العلم إلى قسمين:(العلم الذي هو صفة القديم– جل ذكره– فلا ينبغي لأحد التعرض إلى نعتها والكلام فيها) لأن "صفاته هي العلا لا تبلغها العقول إلا إيمانا بها ولا تقاربها الظنون إلا تسليما. – والقسم الثاني هو صفة للمحدث المربوب وفي هذا يقع التفاضل وكلامنا عليه يتوجه"[1].

وبعد تقريره لهذا الأصل العقدي والمنهجي المهم جدا، وهو التفريق بين:

- ✓ العلم كصفة لله عز وجل لا ينبغي التعرض لنعتها وحَدِّها وأن مبلغ الخلق منها لا يتجاوز الايمان بها والتسليم لها.
- ✓ ثم العلم كصفة محدثة مخلوقة من صفات المخلوق المربوب. وهي التي يمكن الخوض في تعريفها والبحث في طبيعتها وأدوات حصولها.

أشار الى صعوبة تعريف العلم وَحَدِّه " لأن العبارة عنه تقع به"[2] ولذلك فإنه يرجع إلى الاستعمالات اللغوية للأسرة المفهومية لكلمة (علم) (فالعِلم والعلَم والعلامة ألفاظ متقاربة المعاني مثل ذلك: العلم والعلامة تجعلان على شيء ما، فالمطلوب عنهما الموجود عنهما بدلالاتهما عليه هو المعلوم) ثم يقدم لنا تعريفا للعلم باعتبار آثاره ونتائجه فيقول " وما حصل من المعرفة بكيفية ذلك الشيء وكميته وصفاته ونعوته وأشكاله وأحواله وما نحو هذا فهو العلم" [3]

ثم يشير إلى العلم الحاصل بالاستدلال فيقول" والعلامة على ما جعل عليه دليلا فيما حصل عنه من جهة الاستدلال" [4].

كما يجعل اسم العلم منطبقا على " ما عرف بدلالة أو كتاب أو علم أو علامة أو شيء يقوم مقام الواسطة، ويعُم ذلك كله اسم العلم" [5]

---

[1] ابن برجان : شرح أسماء الله الحسنى،2ج، الطبعة الأولى، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، (بيروت: دار الكتب العلمية،2010م) ج1 ص 333

[2] نفس المصدر والصفحة

[3] نفس المصدر والصفحة

[4] نفس المصدر والصفحة

[5] شرح أسماء الله الحسنى، ج1، ص 349

والملاحظ على تعريف العلم عند ابن برجان رحمه الله هو بعده عن التأثر بالحدود المنطقية التي تشترط الحد الحقيقي الدال على تمام ماهية الشيء واقتصاره على التعريف بالثمرة والأثر واللازم، ولذلك لا نجد عنده التعريف المشهور عند المتأخرين، الذي يحُدُ العلم ب(معرفة الشيء على ما هو به)، كما نلاحظ حضور الجانب الاعتقادي كمرجعية حاسمة موجهة للكلام في باب العلم، من خلال تقسيمه ابتداء إلى علم قديم وعلم محدث مربوب .

كما يؤكد أن مفهوم العلم لا يمكن إدراكه إلا بالبحث في باقي المصطلحات القريبة من دائرته المفهومية مثل المعرفة والعقل والمشاهدة والإلهام والكشف وغيرها مما يسميه (بالأسماء الدالة على صفة العلم) فيقول مثلا:"ولا يستوي النظر في صفة العلم والعبارة عنه على الحقيقة إلا بمشاركته في الكلام في صفة العقل, لأن غريزتان ممزوجتان في الأصل ومنزلة أحدهما من الأخرى في طريق الملازمة..."[1] و يقول في موضع أخر: " ثم الفرق بين الخبر والعلم وسائر الأسماء الدالة على صفة العلم أن تتعرف حصول الفائدة من حيث تلقى، فأضف ذلك المعنى إلى تلك الصفة وسم الفائدة بذلك الوجه التي حصلت..."[2]، وهذا يعني أن العلم قد يستعمل ويطلق على مسميات أخرى تدل عليه وتشترك معه في ثمرة العلم ونتيجته، ولكن اختلفت تسميتها عنه للدلالة على الوجه الذي حصلت به تلك الثمرة والنتيجة ..

والمعرفة مرتبة أعلى من العلم أو هي درجة من درجاته ان صح التعبير. وهي تأتي في المرتبة الثالثة بعد المشاهدة التي هي: شهود الموجودات الظاهرة بمشاركة العقل. ثم اسم العلم في المرتبة الثانية: وهو ما عرف بدلالة أو كتاب أو علامة أو شيء يقوم مقام الواسطة.. ثم المعرفة وهي في أول عالم النفس وهو أول عالم الغيب وأقصى عالم الشهادة...)[3] ثم يربط بين المعرفة وبين الروح والالهام في كلام طويل ..الى أن يقول :" والمعرفة يمدها العلم واسمها مشتق من العرف اشارة الى المعنى المغروز في أصل الجبلة الذي به وجبت الحجة يوم أخذ الميثاق في الأزل ..." [4]

وكما هو الحال عند سائر المتصوفة فغاية العلم هي التحقق بمعرفة الله و " أن تعرفه بأياديه الكاملة وصفاته العالية واسمائه الحسنى، ... ذلك المجد الذي لا يدانى، والفخر الذي لا يطاول.. –وهي عنده

[1] نفس المصدر ص 348
[2] نفس المصدر ص 402/401
[3] نفس المصدر ص 402
[4] شرح أسماء الله الحسنى، ج1، 402

معرفتان معرفة حق ومعرفة حقيقة – واعلم أن المعرفة معرفتان: معرفة حق ومعرفة حقيقة، والمعروف بهما واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن كفوا أحد."[1]

فغاية المعرفة عند ابن برجان هي معرفة الله و وحدانيته حقا وحقيقة، ولكنها تنقسم من حيث امكان تحصيلها وادراكها إلى قسمين، أحدهما قابل للعلم به وادراكه، وقسم ثان أبعد عن حدود الإدراك البشري المحدود المتناهي.. وأنى له بلوغ ذلك!؛ "فمعرفة الحق هو ما أبدى للخليقة من أسمائه وصفاته، آثاره في موجوداته، ونصوصا ومعاريض في كتبه على ألسنة رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه على جميعهم. وأما معرفة الحقيقة فلا سبيل إلى بلوغ كنهها، لامتناع علاء الصمدية، وعزة عظمة الربوبية، وقصور الأوهام عن تحقيق معرفة الأحدية، ولأنه لا شبه ولا مثل له فيقاس عليه، قال الله عز وجل: (ولا يحيطون بشيء من علمه)[البقرة: 255].... "[2]

2) طبيعة العلم والمعرفة

بعد الحديث عن مفهوم العلم والمعرفة عند ابن برجان رحمه الله، وظهور الحضور القوي للمرجعية العقدية الإسلامية في تحديد المفاهيم مع ربطها بغايات هذه العقيدة ومقاصدها. لابد من البحث في موقفه من قضية طبيعة العلم والمعرفة الإنسانية قبل الانتقال الى البحث في مصادرها.

يؤكد ابن برجان رحمه الله "فطرية" و"غريزية" و"جبلية" العلم والمعرفة حيث يقول :"العلم وغيره من الصفات غرائز غرزت في جبلة الموجودات وفطرة فطرت عليها المفطورات.."[3] ثم يقول في المعرفة كذلك "..المعنى المغروز في أصل الجبلة الذي به وجبت الحجة يوم أخذ الميثاق في الأزل، فإنه وإن كان عَلم الأسماء كلها آدم عليه السلام وهو موجود بالفعل يومئذ فقد علمها بنيه معه في الأزل وأجملها لهم في بواطنهم وعرف صفاتهم حين ايجاده إياهم حين غرزها في جبلتهم، ومزج بها أمشاجهم بما ألقى إليهم من الحق.."[4]

ولا يقف ابن برجان عند حدود بيان الطبيعة الجبلية للعلم والمعرفة، بل يذهب الى شرح وبيان العلاقة بينهما وكيفية حدوثهما عند الإنسان.

[1] ابن برجان، تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنبأ العظيم، الطبعة الأولى، 5ج، (الأردن: دار النور المبين للنشر والتوزيع، 2016) ج1، ص 552-553

[2] تنبيه الأفهام، ج1، ص 552-553

[3] شرح الأسماء الحسنى، ج1، ص 348

[4] شرح أسماء الله الحسنى،ج1، ص 354

- ✓ فالمعرفة مرتبة من مراتب العلم كما تقدم ذكره.
- ✓ والعلم هو السبيل الموصل الى المعرفة، والمعرفة هي أصل العلم وهي غايته ومقصده في نفس الوقت، والمعرفة يكشفها العلم ويدل عليها والمعرفة أصل العلم..
- ✓ والمعرفة مرتبطة بالنفس والروح فيما يقابل الغرائز التي يشترك فيها الانسان مع الحيوان؛ "ثم المعرفة وهي في أول عالم النفس وهو أول عالم الغيب وأقصى عالم الشهادة فجهة العليا منها هي اليمنى التي على الروح، وفيه يلقي الملك ما يلقيه للعبد من تذكير ينزل وإلهام أوامر بمعروف أو نهي عن منكر وجهة الشمال منها مما يلي الجسم فيه يلقى الشيطان مما يلقيه للعبد مما يناقض إلقاء الملك وهذا هو الفرق بين الإنساني والبهيمي.."[1] إلى أن يقول:" فمن أصغى بحواسه إلى ذلك الإلقاء وأسفل بوجهه إلى ما هنالك شغلته علائق الموجودات وأصمته ضوضاء المشاهدات عن الاستضاءة بنور العلم ومكاشفات اليقين وفتوحات الإلهام وتفجير ينابيع الحكمة عن أنهار المعرفة إلى أرفع من ذلك ..."[2] وكل هذا بمشاركة العقل كما تقدم ثم لا يتم ذلك إلا بالإيمان، ورغم الطابع الصوفي الغامض لهذا النص الا أنه يتضمن العديد من التفسيرات والاشارات (الميتافيزيقية إن صح التعبير) حول التداخل بين ما هو روحي غيبي وبين ما هو مادي عضوي في الانسان ويقدم وجهة نظر متقدمة حول كيفية حصول العلم والمعرفة عند الانسان, كما يعتبر أن التعلم نسق كلي تتداخل فيه العديد من الصفات والخصائص التي خلقها الله في الانسان حيث ".. ركبها في حاملها, فهي على ذلك تعمل بخاصيتها من حيث انفرادها ومن حيث امتزاجها ومن حيث تركيبها وينزل الأمر من أعلا الدماغ إلى القلب ويتركب فيه تركيبا حقيقيا بعد تركيب.." [3]

المبحث الثاني: مصادر العلم والمعرفة عند ابن برجان

المعرفة عند ابن برجان مطلوبة لذاتها ومقصودة من الشارع، ولكنها لا تعتمد على التقليد وهذا يظهر أنه لم يخرج عما قرره المتكلمون في قواعد النظر والاستدلال باعتماد الخبر والحس والعقل كآليات للعلم والمعرفة، يحدد لنا منهجه في النظر والاستدلال فيقول رحمه الله: " أن أول الواجبات بعد شهادة اللسان استسلاما وشهادة الجنان إيقانا: النظر والاستدلال، وأن التفكير في مصنوعاته والنظر في آياته واستشهاد شواهده وبيناته يكون العلم واليقين، كذلك قال ابن عباس رضي الله عنه معروف بالآيات، منعوت بالعلامات،

[1] نفس المصدر، ص 349
[2] نفس المصدر، ص 349
[3] شرح أسماء الله الحسنى، ج1، ص 349

فالمعروف واحد والمعرفة واحدة، غير أن لها أولا مبتدأ وأعلى، ولا منتهى لها عند العارفين بها... فنهج جل جلاله للعباد طريق الهداية إلى معرفته، وأوضح سبيل الهدايات بالبينات.. وأودع جميع المخلوقات كلها، وألزم أنواع المبدعات باسرها من ضروب التغاير وسمات النقص ودلالات الحدث، ما دل على أنه الواحد الأحد الصمد، ليس كمثله شيء، له من الأسماء الحسنى والصفات العلى"[1]

وفي هذا الصدد يمكن تلخيص مصادر المعرفة عند الإمام ابن برجان كما يلي:

المطلب الأول: الفطرة.

يرى ابن برجان أن الإيمان غريزة وفطرة، فهو في بني الإنسان، مغروز في فطرهم، منذ أن أوجدهم الله الإيجاد الأول لأخذ العهد والميثاق، وإنما دعوة الرسل تذكير بذلك الميثاق الذي أخذه الله عليهم، يقول رحمه الله في تفسيره لجواب الكفار في آية: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) [الزمر: 32] " بأن هذا هو معتقدهم المؤسس عليه جبلتهم، وعلمهم المغروز في أصل خلقتهم...وأما المعرفة من أين حدث الباطل في الأعمال والشرك، فيما يقابل التوحيد وتكذيب الرسل، فيما يقابل الإسلام والتصديق بعد مزول ذلك من السماء وفطرة المخلوقات على أحدية الدين القيم، وأخذ الميثاق والعهد، والإقرار بالربوبية والنبوة.." [2]

فقد جعل الله تعالى في فطرة الإنسان قابلية الإيمان والتصديق، فإعمال الفطرة في الكون، وما يحيط به من عوالم مختلفة ينتهي بالإنسان لا محالة إلى الإيمان بواجب الوجود، وهذه الحقيقة يشير إليها ربنا تعالى في قوله: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ) [الأعراف 172]، وفي قوله تعالى " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها" [الروم:30] يقول رحمه الله: " دله سبحانه وله الحمد على المبتغى والسبيل المرتضى: وهو الدين القيم، به قامت السماوات والأرض، وهو دين الإسلام، لو نازعه شيء لقسمه، هو السلام جل ذكره، ودينه الإسلام، وعباده المسلمون، وهو المؤمن وعباده المؤمنون، والفطرة: هو ما لمأه الخليقة يوم إيجاده إياها أولا فأول ... ." [3]

[1] تنبيه الأفهام ج 1، ص 355
[2] تنبيه الأفهام ج3، ص 1257
[3] نفس المصدر، ج4، ص 1911- 1912

وقد حذر القرآن الكريم من تغيير فطرة الله وتبديلها، يقول تعالى: (لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الروم:30] " الذين فرقوه من الدين وغيروه وبدلوه ليس بفطرة الله لهم التي فطرهم عليها، بل ذلك هو كما أخبر الله عنه بطريق الحق المفطور عليه الخليقة: لا تبديل." [1]

وفي نص آخر: " ومن ذلك أيضا: خلقه عباده على فطرة الإسلام حنفاء إلى أنه اجتالهم الشيطان عن دينهم بمشيئة الله وإذنه، ومن ذلك خلقه آدم عليه السلام وبنيه على صورة الحق ثم أسكنه الجنة أولا، إلا أن واقع المحذور... هذا وجود مقتضى هذه الكتاب العلي، موجود في الوجود كله، وكان ذلك الكتاب عنوانا لمسالك الحكم، والإعذار والإمهال، وما كان لأجله العفو والمغفرة والفضل، إلى غير ذلك من أفاعيل الكرم والإحسان وجميل الفعال . "[2]

فالغاية والمقصد حفظ الفطرة من التبديل والتغيير، من جانب الوجود والعدم

" ونحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع، الذي سيأتي بحثه، نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة، والحذر من خرقها واختلالها"[3]

ومن هنا كانت الفطرة صمام الأمان للرجوع إليها في حالة انحراف النفس عن سوء قصدها، وغفلتها عن هدفها الأول الذي أخذه الله عليها في الذر، " وإنما جعل الله عز وجل هذه الفطرة في النفوس لترجع إليها عند جورها عند سوء قصدها وبثها في السموات والأرض، وأوجدها في جميع الموجودات لتأتم العقول بها في مهامه التوهم، وتستنير بنورها في الظلمات، وتقتدي بمعارفها في أضيق المشكلات، حال تطوفها في أسفار أفكارها، وترجع إلى حقيقتها في مجاهل جهالاتها، والله عليم حكيم."[4]

فالفطرة من المقاصد العقدية ، فقد فطر الله الإنسان على النظر وجعله قابلا للتعلم والمعرفة، " وعلى المعرفة والإسلام أفطرت، وبمعنى القيومية وجدت، ثم بوصف الجامع لها في حكم الفطر الآن جمعت، فظهرت بذلك تقدير العزيز العليم."[5]

المطلب الثاني: الخبر

[1] نفس المصدر، ج3، ص 1912
[2] نفس المصدر، ج1، ص 95
[3] الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، 3ج، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ، 1425 هـ - 2004 م) ج3، ص 185
[4] تنبيه الأفهام، ج2، ص 1055
[5] شرح الأسماء الحسنى،ج1، ص 598

يقرر ابن برجان أهمية الخبر كمصدر أساسي للمعرفة، وأن إعراض الفلاسفة عنه اعتمادا على العقل فقط أنتج لنا خللا كبيرا ترتب عنه مجموعة من الأخطاء في النتائج، وسبب هذا الخلل استعمال العقل فيما حقه الخبر، فخبر الوحي لا يعلى عليه إذا ثبت صحة نقله، لذا كان الأصل عنده الكتاب والسنة والإجماع، يقول رحمه الله:" وأشبهه أيضا فيما حكاه أهل الكلام على الأحوال الأصول الشرعية، ووجدوه في ذلك حقيقة، قالوا دلائل الشرع موجود فيه على ثلاثة أوجه: أصل ومعقول أصل واستصحاب حال، فالأصل هو الكتاب والسنة والإجماع.." [1]

لذا كان اعتماد أتباع الرسالة على خبر الوحي في المقام الأول، " اعتمد أتباع الرسالة على طريق الوحي، ولزموا موضع الإيمان بالخبر." [2]

وقد رد رحمه الله على من زعم أن الرسل والأنبياء كان غرضهم الإرشاد لمن لم يمتلك المعرفة، ولم تكن دعوتهم تتعلق بإلزام الخلق بدعوتهم حالة تحقق المعرفة، ومن هنا يمكن للعباد الاستغناء عن دعوتهم، وحكم عليهم بالضلالة ، يقول رحمه الله: " ومنهم من فضل الرسل والأنبياء ورأى لهم الحق لكنه اعتقد إنهم إنما أرسلوا شارعين إلى من لم يصل إلى المعرفة التي تقدم ذكرها قالوا: وإنما الغرض إرشاد الخليقة إلى بارئهم وخالقهم، قالوا: إذا وصل الواصل على درجة المعرفة فقد استغنى عن الإرشاد ووجب أن يتوجه بذلك إلى غيره، فهؤلاء ضلوا من حيث اهتدوا إلى النظر في سنة الله تعالى في خليقته وضلوا بتركهم الاقتداء بسنة الله التي شرعها برسله صلوات الله وسلامه على جميعهم لعباده بالأمر والنهي، ولو انكشفت لهم الغطاء لرأوا أنهم في هذه المرتبة بمنزلة الأعور العين اليمنى وعلى العين اليسرى طفرة، لأنهم أصيبوا في عين الإيمان وبقيت لهم عين العقل، لا يضيء إلا بنور النبوة، فكان ذلك نقصا في عين العقل." [3]

لذا كان الخبر مقدما عنده على العقل، فله الأولية عند توهم التعارض بينهما، ومن الأمثلة التي ساقها في هذا الصدد، قوله : " وكذلك اختلفوا في الأرضين كم هن؟ فقال أتباع الرسالة رحمهم الله: هن سبع كما جاء به الخبر، وقال أتباع الفلاسفة هي واحدة، فلزم هؤلاء موضع المشاهدة، ولزم هؤلاء موضع الخبر، والصواب لأتباع الرسالة بدليل الكتاب والاعتبار. أما الكتاب فقول الله جلا جلاله: (خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) [الطلاق 12.].. وأما الاعتبار فلأنه لما أوجد أفلاكا سبعة، وأوجد لهن أمثلة سماوات سبعة عالية تلك للأفلاك السبعة دلالات عليهن وآيات لهن، وأوجد في الأرض أيضا أقاليم سبعة

[1] تنبيه الأفهام، ج1، ص 188-189
[2] ابن برجان شرح أسماء الله الحسنى، ج1، ص 309
[3] نفس المصدر، ص 336

هن على معاني الأفلاك السبعة، أوجد أيضا أرضين سبعة سافلة..." [1] وفي نص آخر مبينا فيه مدارك الفلاسفة ومدارك أتباع الرسل، والاختلاف بينهم من حيث النظر المعرفي، فكان إدراك الفلاسفة معتمدا على النظر دون الخبر والإيمان، وكأنهم قدموا المحسوس على الخبر، نجد ابن برجان يستنكر هذا المعطى لاحتمال ظنية المحسوس والمعقول في مقابل الخبر الإلهي الثابت والقطعي، يقول رحمه الله : " وإنما قال أتباع الفلاسفة بما أدركوه نظرا، وقال أتباع الرسالة رحمهم الله بما أدركوه خبرا وإيمانا، وإنما ذلك أتباع الرسالة اعتمدوا على السماع والإيمان، واعتمد أولئك على عقولهم ونظرهم، والله جلا جلاله يفرق علم بيناته بين عباده، فيعلم هؤلاء ما شاء الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب وجماع الصواب لأتباع الرسالة بدليل الكتاب والوجود.." [2]

ومع ذلك لا بد من التأكيد على أن العقل يدل على ما يدل عليه الوحي والخبر، ولا يمكن توقع التعارض بينهما من حيث الأصل، وقد يختص الوحي بالدلالة على ما لم يمكن الاستدلال عليه بالعقل، وما كان مخصوصا يجب التسليم له لمعصومية الوحي، ولعدم استحالته عقلا من حيث الوجود والإمكان، وأما ما أمكن الاستدلال عليه بالعقل فلا يتصور مصادمته بالوحي، فالتكامل بين دلالة الوحي ودلالة العقل من مقاصد الشريعة.

ولما ناقش اختلاف الناس حول الأرض كونها كروية او سطحية، نجده يحاول التوفيق بين القولين بكلام علمي رصين، فيعتقد بكروية الأرض من حيث اصل خلقتها، لكن الله بسطها وسطحها للناس للعيش، مع تقديمه لحقيقة الخبر وعدم افتئاته على العقل، فيقول: " واعتمد أتباع الفلاسفة على طريق مشاهدتهم دوران الأفلاك، ولو تتبعوا حقيقة الخبر لوقفوا منه حقيقة العلم، وإنما خلق الله جلا جلاله الأرض أول خلقه لها على شكل الكرة ثم بعد ذلك دحاها وبسطها، فجعلت الأرض تميد، فأرسى عليها الجبال....فترك القرآن طريق النظر لم يذكره إلا تنبيها وإشارة إليه، وقص علينا طريق الخبر، لأن كونها سطحية طريقة الخبر من حيث إنه لا يتبين أنها سطحية أو كروية من نفس الأرض.. فلهذه العلة تبين التكوير علوا ولم يتبين التمهيد في الأرض فاحتاج إلى الخبر، فجاء الأنبياء عن الغائب الذي لا طريق لمعرفته إلا به، وترك النص على ما إلى معرفته سبيل للمشاهدة.."[3]

[1] نفس المصدر، ص 308
[2] ابن برجان، شرح الأسماء الحسنى، ج1، ص 307
[3] نفس المصدر، ص 309-310

فعجز الإنسان عن إدراك شيء لا يعني بالضرورة عدم وجوده، وإن كان العقل لا يحيل عليه مشاهدة، " فالوجود أوسع من دائرة المعرفة ويتجاوزها، إذ ليس كل ما يعرفه الإنسان هو الموجب فحسب، ولكن ما لا يمكنه معرفته فلا يسوغ له أن يجزم بعدم وجوده" [1]

وما أشار إليه ابن برجان من تقديم الخبر على العقل فيما هو غيبي، أو ما سبيله النص واضح لا يحتاج إلى كبير عناية لإثباته.

و خلاصة الكلام اعتبار الخبر او الوحي مصدرا مهما للمعرفة، بل وتقديمه على العقل في حالة توهم التعارض، فالعقل يضيء بنور النبوة والرسالة، وليس العكس.

المطلب الثالث: العقل

اهتم القرآن الكريم بالعقل اهتماما بالغا وجعله مصدرا للمعرفة والعلم، فهو الآلية المحفزة للتفكر والنظر والاستنباط، والآيات القرآنية متضافرة في الحث على التعقل والتفكر والنظر، ومن بينها قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 242]، وقوله تعالى –: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2] ومنها قوله تعالى –: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: 3] ..

ولم يختلف موقف ابن برجان عما قرره القرآن من أهمية العقل وقيمته في المعرفة، حيث يقول رحمه الله مبرزا أهمية العقل في تمييز ما تراه البصيرة مما تراه الحواس: " والعقل فاعلم يعرف التفرقة بين ما هو مضاف إلى هذه الحواس الباطنة، وأنها وإن بطنت من مدارك الحواس الظاهرة، وكذلك يفتح لهم ابواب الذكر والشعور والفطنة والإلهام والتوسم في مقابلة الذكر الأول والشعور الأول والصفات الأول أجمعها، "][2] فإذا علا قدر كمال العقل وقوة نور الإيمان، ومشيئة الله عزو وجل في إتمام النعمة على العبد وإجزال الحظ له من ذلك تكون رفعته وعلوه. " [3]

ورغم تعرض العقل وفكره إلى الخطأ في كثير من الموارد، إلا أن ابن برجان له تصور حول العقل باعتباره أكثر انبساطا من القلب واللسان، يقول رحمه الله: " وعلى كل حال فالعقل أكثر انبساطا من القلب

[1] , د راجح الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، (السعودية: مكتبة المؤيد، سنة 1992،) ص 433
[2] ابن برجان، تنبيه الأفهام، ج1، ص 56
[3] ابن برجان، شرح الأسماء الحسنى، ج1، ص 303

واللسان، وقد تقدم ذكر القلب ما هو، لأن العقل يستمد من المعرفة وهما للباطن، والقلب يستمد من العلم وهما من الظاهر، بالإضافة إلى العقل والمعرفة... " [1]

لذا كانت قدرة العقل على التفاعل مع الآيات الكونية وبناء المعرفة واضح الدلالة، وهذا ما يريده القرآن بغرض الوصول لمجموعة من الحقائق الإيمانية التي غرزها الله في فطرة الإنسان، " وإذا بلغ العقل إلى هذا المقام فهو اللب، وهم المخاطبون بجليل الأمر، والعقل هو الشجرة المباركة على هذه الجهة من الاعتبار" [2] ومن بديع كلامه رحمه الله حول العقل قوله: " ويحمل غريزة العقل في الدماغ أربعة معان: وهي الذكر والفكر والفهم والوهم، فأعلى الذكر الذهن وأسفله النسيان، وأعلى الفكر اليقظة وأسفله الغفلة، وأعلى الفهم الذكاء وأسفله الفقه، وأعلى الوهم التصور وأسفله التخيل."[3]

والمتأمل في ما كتبه ابن برجان يلمس كثرة كلامه على العقل وآلياته من النظر والتفكر في الخلق وجمال الصنعة، وكيف يمكن أن يدلنا ذلك على عظمة الله وإثبات وجوده تعالى.

يرى ابن برجان أنه بدون استعداد القلوب للتعقل لا يمكن تحقيق مقاصد النظر والتفكر.

" وإنما تعقل القلوب إذ عملت عملها الذي أوجدت له، من التفكر والتذكر ونحو هذا، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وباب هذا كثير واسع"[4]

كما أوضح أهمية النظر وشرط تحققه من استحضار القلب وجمع الفؤاد وتصفية الفكر، يقول رحمه الله: " فمن أراد النظر في السماء والأرض ليحقق إيمانه بموجودها، ويتحقق بجاعلها ومرتبها جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: فليجمع فؤاده وليحضر قلبه وليجل فكره فيما أظهر الله جل وعز في السماء من غرائب الصنعة ولطائف الحكمة، فإنه يرى ما يبهر عقله ويحير لبه: من سقف مرفوع لا كالسقوف المعهودة، وبناء لا كالأبنية المألوفة في عظم خلقه وسعة بسطه...."[5]

هذه المعرفة لا يمكن أن تتم إلا بالجهد في البحث وترداد التفكر والنظر، وهذا ما قصده بقوله: " وما من لفظة منها جاءت مغايرة الظاهر لغيرها إلا لمعنى موجود في المخبر عنه، وحق في المعبر إليه فافهم، ولا تكن من المتساهلين في البحث، جاهدا أعني ذكر الآيات والمعبر عنها إلى غايتها في دار الحق

[1] شرح أسماء الله الحسنى، ج1، ص 304
[2] نفس المصدر السابق ص 356
[3] نفس المصدر ص 356
[4] تنبيه الأفهام، ج1، ص 97
[5] تنبيه الأفهام، ج 1 ص 259

المبين، وفي ذلك البيان البين أن الشيء الدال بنفسه قد يكون باستقصاء التدبر، وترداد التفكر دليلا على شيء ما، وأنه على شيء آخر من طريق غيره على مطلوب آخر"[1]

المطلب الرابع: الحس

يمكن للعقل أن يتجرد في فهم المعلومات الضرورية أو المنطقية مجردة عن الحس، لكنها تبقى محدودة وقاصرة، فربط المعارف بما هو محسوس، أو تجريبي يعطي للمعرفة معنى وقوة وصلابة، وقد زود الله الإنسان بهاته الحواس بغرض استعمالها، وتعطيلها ضرب من الجهل والضلال، يقول الله تعالى: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) [سورة الملك: 23.]

وقال تعالى واصفا حال أهل جهنم المعطلين لحواسهم: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[الأعراف 179]

فمن أعظم أسباب الغفلة تعطيل الحواس، فهي مصدر مهم من مصادر المعرفة عند العقلاء، وهي شيء زائد عن العقل، رغم أنه الرابط للفهم والتذكر والنظر.

ولم يفت ابن برجان الحديث عن هذا المصدر والتدليل به على وجود الله تعالى وعظمه، ففي تفسير قوله تعالى:(الرحمان الرحيم) قال رحمه الله: " الرحمن: اسم ممنوع ممن سواه، تبارك، خاص له لا يتسمى به إلا هو، دلائله في السموات والأرض ظاهره، وعلاماته وآلاؤه وشواهده في الوجود والوحي شائعة، خلق الرحمن مائة رحمة أهبط منها إلى الأرض واحدة، وأمسك عنده التسع والتسعين اسما... ومن نظر إلى بديع الأحكام في جملة العالم، وحسن ترصيف نظامه، ووقف على اطراد تصنيف الترتيب فيه وتمساك بعضها ببعض، وتعاطف بعضه على بعض، وأشرف بعد ذلك على قوة الضغط وشدة الأمر وشمول هذا القهر: علما يقينا أن ذلك لا يكون إلا من رحمن ألف نظامه، وأحسن تعاطفه، وفاضل استجابة ما بين بعضه وبعض على مقاربة بعضه لبعض، وأن ذلك لا يكون إلا عند استجابة كله إلى كله." [2]

هذا النظر أشار إليه القرآن الكريم في كثير من المواضع كما في قوله تعالى: (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) [الملك: 4]

[1] نفس المصدر، ج1 ص 357
[2] تنبيه الأفهام ص الجزء الأول ص 106

أي ثم ارجع البصر مرّة بعد مرّة يرجع إليك بصرك ذليلاً دون أن يرى عيبًا أو خللاً في خلق السماء، وهو كَلِيل منقطع عن النظر، ما ترى فيما خلق الله أي تفاوت أو عدم تناسب، هل ترى من عيب ، أو نقص ، لن ترى ذلك، وإنما ترى خلقًا محكمًا متقنًا.

ومن بين الأدلة التي استعملها ابن برجان في إثبات وجود الصانع:

- دليل الخلق والاتقان والعناية:

وهو دليل يعتمد أساسا على الإدراك الحسي، كما أنه من أعظم الأدلة في وجوه الدهريين أو المنكرين لوجود الخالق سبحانه وتعالى، فإن الناظر المتبصر في خلق الله لا يرى إلا الكمال والإتقان، ولو بحث عن عيب في الخلق لأعجزه، يشرح لنا الإمام الرازي هذا الدليل بقوله: "وهي الاستدلال بما في العالم من الإحكام والإتقان على علم الفاعل، والذي يدل على علم الفاعل هو بالدلالة على ذاته أولى" [1]، هذا الدليل اتفق عليه جميع المسلمين بمختلف توجهاتهم ولم يتنازعوا حوله، أما ابن برجان فقد أبدع كعادته في إيضاح هذا المعنى، يقول رحمه الله داعيا إلى التدبر فيما خلق الله تعالى: " لا يتم تدبر آي القرآن للمتدبرين حتى يتعرضوا بنظرهم الصائب وبصائرهم النافذة إلى كل من خلقه الله جل ذكره، قال الله: (أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء)[الأعراف: 158"][2]

والعاقل الناظر في هذا الكون لا يمكن أن يتصور وجود هذا الكون دون سبب، وهو أمر مخالف للبديهيات العقلية، فهذا الضبط الدقيق للكون بكل تفاصيله الجزئية دليل على عظمة الصانع الخالق وعلمه الواسع، يقول الله تعالى المالك لكل شيء: (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان : 2)، فللكون قوانين غير قابلة للتغير والعشوائية ومن دونها لا يمكن للحياة أن تستمر، وقد تسبب هذا النظام الدقيق حرجا كبيرا لكثير من الملحدين في وقتنا الحاضر، فأي تغيير طفيف في الثوابت الكونية سيؤدي لا محالة إلى خلل في نظام الكون، وهذا ما أشار إليه ابن برجان " فصل: وجود الصنعة دال على وجود صانعها لا محالة، كما أن وجود الفعل دال على وجود فاعله وهذا القدر من العلم إن سلم من العناد ووقي من الخلاف فهو إيمان، وإلا فهو غير واق عنك

[1] الفخر الرازي، المطالب العالية من العلم الإلهي، 3ج، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 199) 135/2
[2] تنبيه الأفهام، ج1، ص 75

من الله شيئا ولا كافيه، لأنه من أثبت الصانع الخالق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه ولم يوحده ولا أطاعه ولا قبل هداه ولا صدقه فليس إثباته ذلك بنافعه ولا بكافيه"[1]

يبين لنا ابن تيمية رحمه الله حقيقة هذا الاتقان الدال على علمه الواسع وعظمته ووجوده العلي فيقول: "أفعاله المحكمة المتقنة دلت على علمه، وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء، فإنهم يسلمون أن الإحكام والإتقان يدل على علم الفاعل، وهذا أمر ضروري عندهم وعند غيرهم، وهو من أعظم الأدلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها، والإحكام والإتقان إنما هو أن يضع كل شيء في محله المناسب، لتحصل به الحكمة المقصودة منه.. وحكمة الرب في جميع المخلوقات باهرة، قد بهرت العقلاء، واعترف بها جميع الطوائف، والفلاسفة من أعظم الناس إثباتاً لها، وهم يثبتون العناية والحكمة الغائية، وإن كان فيهم من قصر في أمر الإرادة والعلم، وكذلك المتكلمون كلهم متفقون على إثبات الحكمة في مخلوقاته، وإن كانوا في الإرادة وفعله لغاية متنازعين"[2]

فهل يمكن للملحدين أن ينكروا وجود أنفسهم، وإذا كان لا، فمن أوجدهم وأوجد هذا الكون الفسيح بنظام في غاية الدقة؟

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: 53]، أي سنريهم آياتنا في السماوات وفي الأرض ، ونريهم آياتنا في الأنفس حتى يتضح لهم بما يرفع الشك أن هذا القرآن هو الحق الذي لا مِرْية فيه.

ومن بين الأدلة المدركة حسيا والتي استعملها ابن برجان تأييدا لنظريته المعرفية والتي قررها المتكلمون في إثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى:

- دليل التمانع:

" وهو أحد البراهين العقلية المهمة في إثبات وحدانية الله تعالى ونفي تعدد الخالق المدبر، ويتألّف هذا البرهان من مقدّمتين أساسيتين، وهما وجود الانسجام والوحدة والتناسق فى عالم الخلق، والثانية: إنه لو كان يحكم هذا الكون أكثر من رب واحد لما انتظم أمر هذا الكون ولدخله الفساد والخلل، وبما أنّنا لا نلاحظ

[1] نفس المصدر، ج1، ص 366

[2] ابن تيمية، النبوات، 2ج، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، (الرياض: مكتبة أضواء السلف، 1420هـ/2000م) ج2، ص 921

أي اختلال أو خلل فى هذا الكون والقوانين الحاكمة فيه، ندرك بالبداهة والضرورة أنّها تنشأ من مُبدىء واحد وأنّها مخلوقة ومدبّرة ومنظّمة من خالق واحد".[1]

وجعلها الرازي من أقوى الأدلة على معرفة الله ووجوده، يقول رحمه الله: "اعلم أنهم ذكروا أنواعاً من الدلائل، أقواها دليل التمانع "[2]

وقد تحدث ابن برجان عن هذا الدليل في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، [البقرة: 164]، قال رحمه الله: " فصل: في الاعتبار بالماء ينزله جل ثناؤه من السماء، قال الله عز وجل: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فصلت: 39 .]

فأثبت لنفسه بموجب الحق والدليل على أنه الحي المميت، وأنه القادر على كل شيء، وأنه المنزل الماء من السماء، وأنه المنشئ المريد، لا يكون من ذلك إلا بمشيئته وإذنه في ذلك، ما شاء من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه الواحد، لأنه المنزل الماء من السماء، إذ لو كانت السماء له دون الأرض لمانعه مدعيها، لو كانت الأرض ولم تكن له السماء لوقع التمانع في توصل الأحكام وتفصيل القضايا وترتيب الأفعال الكامنة عن ذلك، لولا أنع الإله الواحد الأحد في السموات والأرض لم يتصل ولانخرم النظام، فلم تتسق الأحكام ولفسدت السموات والأرض ومن فيهن" [3]

وهنا يشير رحمه الله إلى قوله تعالى: (" مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ")[المومنون 91].

يعني لو كان هناك إله غير الله ما الذي يمكن أن يحصل ؟ أن يستقل كل إله بملكه ، ونحن لا نرى أن هذا الكون مقسماً ! بل نرى أن الكون يسير على نسق ونظام واحد لا خلل فيه ؛ مما يدل على أن للكون إله وخالق واحد ، ثم لو كان كذلك لعلى بعضهم على بعض ووقع بينهم مغالبة وصراع يمتنع من خلاله اتساق الكون ، وهذا غير موجود بل العالم منتظم مستقر مطمئن . سبحان الله عما يشركون.

[1] انظر معنى التمانع عند الباقلاني، التمهيد، (بيروت: جامعة الحكمة ببغداد - المكتبة الشرقية ، 1957م) ص 46
[2] الفخر الرازي، المطالب العالية 135/2
[3] تنبيه الأفهام ج1، ص 354.

ومن المبادئ التي اعتمدها ابن برجان في إثبات عظمة الخالق والمتعلقة بالحس: – النظر في علوم الطبيعة والإنسان والحياة :

هذا النظر قد بين الله تعالى مراحله عن طريق خلق الإنسان في القرآن الكريم حيث قال سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ*ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون: 12]

فتكون خلق الإنسان من عنصرين: الماء والتراب، وعندما امتزج الماء مع التراب كانت النتيجة حصول الطين اللزج ليشد بعضه بعضا، فجاءت المرحلة الثانية المتمثلة في النطفة ثم العلقة، فصارت مضغة غير مخلقة لا نقدر من خلالها فرز أعضاء جسم الإنسان إلى أن صارت مخلقة، ثم تتحول إلى هيكل عظمي يكسوه الله لحما وينفخ فيه الروح.

" ولقد صنف الجاحظ وهو ممن يقول إن المعارف ضرورية كتاب (العبر والاعتبار) فأتى فيه بما يقضي له بعلو القدر في العلم وتعمقه في التفكر في عجائب المخلوقات الضرورية، وكذلك النظر في علم التشريح، وعجيب خلق الإنسان والتأمل لما يدرك من ذلك بالعيان، وقد حث الله تعالى على النظر في المشاهدات." [1]

وابن برجان لم يختلف مسلكه عن الجاحظ فقد أفاض في الحديث عن الإنسان وتركيبه وخلقه وما حواه الله من عجائب في أصل خلقته، يقول رحمه الله: " سبحانه عز وجل وله الحمد أحسن تقديره وأتقن تركيبه، وقسم أجزاءه ورتب أعضاءه وأحكم تدبيره، فأبدع تصويره وصنعه بشرا وشق له سمعا وبصرا، وجعل له يدين ورجلين وظهرا ووركين وبطنا ولسانا وشفتين، ثم هداه النجدين.. وهذه كلها أعضاء مركبة لضروب المنافع، لا غنى له عنها ولا حياة له إلا بها، وهي كلها من جهات الافتقار والحدث، إذ القويم عز وجل ليس بمفتقر إليها ولا إلى شيء غيرها، والمنافع والمضار لا تجوز عليه من حيث هي صفات نقص وفقر وعجز، كذلك هيأ له آلات لقبول الغداء الذي يكون به حياته وبقاؤه، وجعل عز وجل لغدائه بلطيف حكمته... ثم نفخ فيه الروح وألزمه الحركة والسكون، وجعل الرحم مسكنه، والبطن منزله، بحيث توارى عن العيون، وخفي عن الظنون، مطبقا عليه في مضائق الأمعاء وظلم الأحشاء..ثم تلمظ لما جاء يستدعي على الرضاع،

[1] ابن الوزير، ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، (بيروت: دار الكتب العلمية) ص 39

فلم يأل في إجهاد حلمة الثدي مصا للبان أمه، فلما أساغه وسرى في جسمه سكنت حرارة جوعه فسكن، فقلت: ليت شعري كيف اهتدى لمص ثدي أنه وهو لا يرى ولا يسمع ولا يعقل ولا يعلم ولا يعي ولا يفهم، ومن أين علم أن هناك لبنا يغديه، وأنه بالمص يستخرجه، وبالإساغة يتم غذاؤه ويهدأ جوعه ولم يعرف شيئا من ذلك"[1]

وأفاض رحمه الله في الحديث عن السماء والأرض وما فيهما من براهين حسية وعقلية على وجود الخالق وعظمته، مما يدل على غرائب الصنعة ولطائف الحكمة، " من سقف مرفوع لا كالسقوف المعهودة، وبناء لا كالأبنية المألوفة في عظم خلقه وسعة بسطه، وعلو وبناء وارتفاع سمك مزين بأزين زينة.. ثم اعتبر وانظر لما سخره الخلاق العليم فيما بينهما من أفلاك مسخرة تحمل الأمر إلى الشمس والقمر والنجوم على ترتيب مطرد ونظام غير منخرم... وأما النظر في الأرض والاعتبار بها إلى غيبها، وبما اتصل بها إلى معرفة خالقها والإيمان بجاعلها جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: فإنك إذا نظرت إليها نظر معتبر وجدتها جسمت متكاثفا متداخلا متطابقا ذا طرق ملونة: بيضا وحمرا وصفرا وسودا وغبرا مشدودة بالجبال الرواسي..." [2]

واستمر رحمه فيما يقارب عشر صفحات متحدثا عن الطبيعة والإنسان وما خلق الله في الكون من آيات عجيبات تدل أشد العجب وأعظمه برهانا على وجوده وعلمه وقدرته سبحانه وتعالى، مكثرا في ذكر الطرق للاعتبار والتذكار فكان ختم الكلام بقوله: " قد كان فيما مضى من الاعتبار مقنع، يصعد به المتذكر فيه والمعتبر به إن صدق الله في نظره، وكان ذا قلب شاهدا إلى أرفع درجاته، لكنا ذهبنا إلى تكثير الطرق في الاعتبار، وتقرير الشواهد على مبالغ الأذكار، ليكون ذلك أيسر على الإفهام، وأوسع لمحال التذكار."[3]

[1] تنبيه الأفهام ج1، ص 353
[2] نفس المصدر، ج1، ص 360-361
[3] نفس المصدر، ج1، ص 365

خاتمة:

يمكن القول أن ابن برجان أدرك حقيقة المعرفة من خلال طرقها المعتمدة شرعا وعقلا وحسا، فجمع بين المنهج العقلي والتجريبي في إدراك الحقائق والمعارف، فقد أسس لنظرية معرفية انطلاقا من خلق تركيب من المذهب التجريبي– الحسي والمذهب العقلي، فاستطاع المزج بينهما، فيمكن معرفة هذا العالم عبر العقل والاستدلال المنطقي انطلاقا من مقدمات صحيحة مع اللجوء إلى المعطيات الحسية، وهذا خلاف ما عليه المدرسة العقلية المجردة، والمدرسة التجريبية المجردة، لذا كان رحمه الله بارعا في الجمع بين المدرستين.

فنظريته المعرفية تكاد تكتمل عنده، فالرجل كان صوفيا وجدانيا، متكلما، صاحب عقل نافذ، ورؤية ثاقبة تستهدف تكوين المعرفة الحقة لدى الإنسان، فتجده يركز على تكوين معرفة مشتملة على الفكر والإدراك مع الحرص على حسن الاعتقاد، وهي أصول معرفية وعلمية لازالت تناقش رغم كثرة البحوث والدراسات حول نظرية المعرفة، فالمباحث العقدية تحتاج إلى علم ومعرفة، لأنها لب الدين وأساسه، ومن نظر فيما كتبه ابن برجان في تفسيره يتعجب من قوة إدراكه لمثل هذه المفاهيم بشكل متكامل، ولا يزال أمام الباحثين فرصة للتنقيب والبحث في كنوز الرجل المعرفية على مستويات متعددة، ومحاور مختلفة تخص البحث العلمي.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- التشوف إلى رجال التصوف، ابن الزيات، الطبعة الثانية، تحقيقأحمد توفيق، (المغرب: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1984م)
- المطالب العالية من العلم الإلهي، الفخر الرازي، 3ج، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 199)
- تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنبأ العظيم، ابن برجان، الطبعة الأولى، 5ج، (الأردن: دار النور المبين للنشر والتوزيع، 2016)
- شرح أسماء الله الحسنى، ابن برجان، 2ج، الطبعة الأولى، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، (بيروت: دار الكتب العلمية،2010م)
- صلة الصلة، ابن الزبير الغرناطي، الطبعة الأولى، تحقيق شريف أبو العلي العدوي، (مصر: مكتبة الثقافة الدينية، 1429ه)
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د راجح الكردي ، الطبعة الأولى،(السعودية: مكتبة المؤيد، سنة 1992)

ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، ابن الوزير اليمني، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، (بيروت: دار الكتب العلمية)

التمهيد، الباقلاني، (بيروت: جامعة الحكمة ببغداد – المكتبة الشرقية ، 1957م)

المطالب العالية من العلم الإلهي، الفخر الرازي، 3ج، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 199)

مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، 3ج، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425 ه – 2004 م)

النبوات، ابن تيمية، 2ج، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، (الرياض: مكتبة أضواء السلف،1420ه/2000م)